رموز الكتابة العربية القديمة (الصوامت والصوائت)

Ancient Arabic Writing Symbols

(Consonants and Vowels)

أ.د. مي فاضل جاسم الجبوري
Prof. Dr. May F. Al-Juburi
جامعة أم القرى/ كلية اللغة العربية
Umm Al Qura University \Faculty of Arabic Language
E-mail: mfjubueri@uqu.edu.sa

الكلمات المفتاحية: الكتابة العربية القديمة، الصوامت العربية، الصوائت العربية.
Keywords: Ancient Arabic writing, Arabic consonants, Arabic vowels

الملخص

طُرحت نظريات متعددة في الأصل الذي اشتُقت منه الكتابة العربية، ولكن الرأي الغالب كان مع اشتقاقها من الكتابة النبطية. فهناك تشابه بين الكتابتين العربية القديمة والنبطية، ولكنّ هناك فرقًا بين عدد الحروف النبطية؛ فهي اثنان وعشرون حرفًا، وعدد الحروف العربية الثمانية والعشرين ما عدا الحركات الطويلة (حروف المد) والقصيرة المعروفة. وقد استعملت العربية الحرف نفسه لأكثر من صوت بدون تفريق في أول الأمر، فالحروف لم تفرق بنقط الإعجام إلا في زمن متأخر. هذا البحث يطرح حلين لسؤالين: الأول عن سبب تكرار الرمز الواحد في الخط العربي لفونيمين أو أكثر، والثاني عن سبب تأخر ظهور رموز الصوائت في الخط العربي القديم. ومن الله التوفيق.

Abstract

The most famous theory about Ancient Arabic writing symbols says that they were derived of the ancient Nabataean symbols. But the Arabic symbols for consonants are Twenty eight as the Nabataean symbols were only twenty two. This research deals with the cause of repeating the same symbol for two or more Arabic sounds in the ancient Arabic scripts like Jeem and Kha' or Seen and Sheen or Ain and Ghain ..etc. The research also address the lack of symbols for vowels in the ancient Arabic scripts.

المقدمة

تعرضـت العربية مثل كل اللغات للتغيرات الصـوتية لأسـباب مختلفة؛ لعل أهمها تلاقح الحضـارات أو اختلاط العرب بغيرهم من الشـعوب، ولا سـيما بعد انتشـار الإسـلام. وبالنظر إلى أنها إحدى بنات اللغة السامية (الأم المفترضـة)؛ فنحن نستطيع أن نتأمل التغيرات الصـوتية التي طرأت عليها، من خلال متابعتنا لاختلاف العربية عن السـاميات، على افتراض أن اللغة السـامية الأم عندما تفرّعت إلى اللغات المعروفة باللغات السـاميّة اتبعت الطريقة التي تنشـأ عنها اللغات في الأغلب، وهي ظهور اللهجات، ومن ثَم بابتعادها الزمني أو المكاني عن اللغة الأم تتحول إلى لغات. لقد انتبه القدماء إلى ذلك ومنهم ابن حزم فقال: "فمن تدبر العربية والعبرانية والسريانية أيقن أن اختلافها إنما هو من نحو ما ذكرنا من تبديل ألفاظ الناس على طول الأزمان، واختلاف البلدان ومجاورة الأمم وأنها لغة واحدة في الأصل" (ابن حزم، ١٩٨٣، ١ /١٩).

إن أهم ما جمع هذه اللغات في وعاء السامية هو تشابه كبير بين كثير من المفردات بله القواعد، إلى درجة تقودنا الى إدراك التطابق في الكلمة أو الجذر صـــوتيًا أحيانًا كثيرة، أو مع اختلاف في بعض أصـــواتها بعد التغيرات الصـــوتية التي طرأت عليها. كما أن بعض الظواهر البارزة قد تجمعها مثل الإعراب أو التثنية، وقد ظهرا في بعض (الساميات) كالأكدية، واختفيا من بعضـــها الآخر بمرور الوقت، واختفى الإعراب من الأكدية أيضًـــا (بروكلمان، ١٩٧٧، ص١٧) مثلما تراجع الإعراب في العربية في العصـــر الحاضـــر. وهناك مقومات أخرى تجمع هذه اللغات وتعيدها إلى أصل واحد اهتم الباحثون بجمعها، وتعتني بذكرها كتب الساميات وفقه اللغة خاصة، ومنها وجود الأصـــوات الحلقية، وثلاثية الجذر لأغلب كلماتها، وارتباط المعنى الرئيس للكلمة بالصوامت، وما إلى ذلك من أوجه التشابه (بروكلمان، ١٩٧٧، ص١٤-١٥).

في الجدول الآتي نلاحظ تشـــابه واختلاف بنات الســـامية الأم فيما بينها (من الناحية الصوتية وهي ما يهمنا في هذا البحث)، وفيما بينها وبين السامية الأم المفترضـة، كما يحدث لو أنها كانت لهجات لها تحولت إلى لغات بتقادم العهد وابتعاد بعضها عن البعض الآخر.

اللغة السامية الأم	اللغة الأكدية	اللغة العربية		اللغة الفينيقية		اللغة العبرية		اللغة الآرامية		اللغة العربية الجنوبية	
B	B	B	ب	b		ב b̲/b	ב	ב b̲/b	ב	B	∩
P	P	F	ف	p		פ p̄/p	פ	פ p̄/p	פ	F	∠
ḏ	Z	ḏ	ذ	z		Z	ז	ḏ/d	ד	Z	H
ṯ	Š	ṯ	ث	š		Š	ש	ṯ/t	ת	S	∩
ṱ	ṣ	ẓ	ظ	ṣ		ṣ	צ	ṭ	ט	Z	H
D	D	D	د	d		ḏ/d	ד	ḏ/d	ד	D	⊿
T	T	T	ت	t		ṯ/t	ת	ṯ/t	ת	T	+
ṭ	ṭ	ṭ	ط	ṭ		ṭ	ט	ṭ	ט	ṭ	Ω
Š	Š	S	س	š		Š	ש	Š	ש	S	∩
Z	Z	Z	ز	z		Z	ז	Z	ז	Z	H
S	S	S	س	s		S	ס	S	ס	S	∩
ṣ	ṣ	ṣ	ص	ṣ		ṣ	צ	ṣ	צ	ṣ	Я
L	L	L	ل	l		L	ל	L	ל	L	Λ
Ś	Š	Š	ش	š		S	ש	S	ש	Ś	ш
ṣ́	ṣ	ḍ	ض	ṣ		ṣ	צ	‘	ע	ṣ	θ
G	G	Ğ	ج	g		ḡ/g	ג	ḡ/g	ג	G	ገ
K	K	K	ك	k		k̲/k	כ	k̲/k	כ	K	ɦ
ḳ	Q	Q	ق	q		Q	ק	Q	ק	ḳ	Φ

ʿ	0	ʿ	ע	ʿ	ע	ʿ		Ġ	غ	–	**Ġ**
ḫ	ל	ḥ	ח	ḥ	ח	ḥ		ḫ	خ	ḫ	**ḫ**
ʿ	0	ʿ	ע	ʿ	ע	ʿ		ʿ	ع	–	**ʿ**
ḥ	ሐ	ḥ	ח	ḥ	ח	ḥ		ḥ	ح	–	**ḥ**
ʾ	አ	ʾ	א	ʾ	א	ʾ		ʾ	ء	–	**ʾ**
H	U	H	ה	H	ה	h		H	ھ	–	**H**
M	ო	M	מ	M	מ	m		M	م	M	**M**
N	ነ	n r	נ ר	N	נ	n		N	ن	N	**N**
R	ረ	R	ר	R	ר	r		R	ر	R	**R**
W	ወ	w y	ו י	w y	ו י	w y		W	و	W	**W**
Y	የ	Y	י	Y	י	y		Y	ي	Y	**Y**

نلاحظ من هذا الجدول (Kogan 2011) أن العربية اختلفت عن الســـامية الأم بما يأتي من أصوات صوامت:

- استعاضت عن الصوت /p/ بالفاء. والاختلاف بينهما أن /p/ انفجاري أو وقفي (عمر، ١٩٧٦، ص١٨٧) والفاء عكسه احتكاكية. وصوت /p/ هو باء مهموسة، يصدر من بين الشفتين بقفلهما ثم فتحهما فجأة. في حين أن الفاء تصدر بملامسة الأسنان العلى الشفة السفلى بصورة تسمح بمرور الهواء مع حدوث احتكاك (بشر، ١٩٩٠، ص١١٨).
- الظاء في العربية ليست من الأصوات السامية، فقد تحول النطق العربي إليها من صوت ساميّ يرمز له / ṯ/ وفي جدول الأصوات المستعملة في الكتابة الصوتية الدولية IPA وجدت إشارة إلى أن هذا الصوت أسناني وقفي (IPA) ، أي: غير احتكاكي، أي: إنه يصدر بملامسة طرف اللسان للأسنان العلى. ولتصور أن هذا الصوت قد تحول إلى ظاء في العربية لا بد أن نتخيل مرحلة

تغير موقع طرف اللسان بالنسبة للأسنان، حيث يتقدم لنطق الظاء قليلًا عند ملامسة أطراف الأسنان، وبالتفخيم يتحول هذا الصوت إلى الظاء الخالصة، وهي احتكاكية مفخمة مجهورة.

- تحولت الشين إلى سين. هنا لا بد لنا من أن نربط بين سبب هذا التحول وتحول آخر هو تحول صوت (السامخ) إلى شين (حجازي، ٢٠٠٣، ص ٢٠٥-٢٠٧)، فإذا تحول إلى شين خالصة فلا بد من تغيير الشين حتى لا تختلط الدلالة باستعمال صوت واحد فحولت إلى سين. فأما السامخ الذي أشار الجدول إلى أنه معروف في العبرية والعربية الجنوبية وهي التي احتفظت به من بين أخواتها الساميات؛ فما زال مسموعًا في لغات أهالي ولاية ظفار غير العربية من سلطنة عمان كالجبّالية والمهرية. وأما الشين فقد تحولت إليها معظم الساميات، ولعل ذلك من باب السهولة.
- تحول الصوت [ṣ́] إلى ضاد. إن الرمز [ṣ] يشير إلى الصاد، والرمز الذي ظهر أعلاه يعني أن الصاد قد تغير شيء من صفاتها. والفرق في الصفات بين الصاد والضاد هو الجهر في الضاد، وهمس الصاد، والصفير الذي في الصاد، وكونها احتكاكية، مما لا نجده في الضاد المجهورة. فلعل المقصود بالرمز الذي يمثل اللفظ السامي الصاد المجهورة. ولا سيما أن معظم اللغات السامية الأخرى قد تحولت منه إلى الصاد.
- تحولت /g/ إلى جيم. والعربية هي الوحيدة من الساميات التي حدث فيها هذا التحول. ولا بد من أن يربط هذا التحول بتحول آخر هو تحول /ḳ/ السامي إلى قاف في العربية، وقد احتفظَت باللفظ السامي العربية الجنوبية. ومعلوم أن العربية الجنوبية موطنها اليمن، وهناك كثير من الناس يحولون القاف إلى صوت /g/. ومن العرب مجموعة كبيرة اليوم تحول القاف إلى /g/ ، وهذا التحول مثبت في شرح السيرافي لكتاب سيبويه الذي كُتب قبل أكثر من ألف عام. ويبدو أن هذا التحول قديم جدًّا، حيث لم يجز للعربية أن تحتفظ بالأصل السامي /g/ حتى لا تختلط الدلالات باستخدام صوت واحد لحرفين فتحولت منه إلى الجيم [ʤ] ، وهذا يدخل في قانون التوازن، حيث لا يتغير صوت بمعزل عن الأصوات الأخرى في النظام اللغوي نفسه (عمر، ١٩٧٦، ص ٣٧٧). (وهذا القانون ينطبق أيضًا على مسألة التحول إلى السين والشين في العربية كما مر بنا). وبذلك فاللهجات العربية التي احتفظت بالأصل السامي /g/ لا يمكن أن تنطق القاف بالصوت نفسه، فنجدها إما تنطق القاف المهموسة، وإما تنطقها كما أبدلها بعض المصريين؛ إذ ينطق الهمزة بديلًا للقاف. لكن كارل بروكلمان ذكر أن الصوت الطبقي المهموس (ق) تحول في البابلية على الأقل إلى الصوت الغاري المجهور (ج) (بروكلمان، ١٩٧٧ ، ص١٦). ولا بد أن نذكر أن مترجم الكتاب هو الدكتور رمضان عبد التواب، ولعله أراد بحرف ج الجيم القاهرية التي تلفظ /g/ وهو طبقي، وأما القاف فهي لهويّة.

أما ḳ فلعلها القاف المجهورة؛ لأن الســـاميات حولتها إلى القاف المهموســـة إلا العربية الجنوبية التي احتفظت كما أســلفنا باللفظ الســامي. وفي الكتابة الصــوتية الدولية هناك مجهور القاف ومجهور الكاف، ويُرمَز لمجهور الكاف بالرمز /g/ ولمجهور القاف بالرمز /G/ ولفظهما مختلف، ويمكن ســـماع طريقة أداء كل منهما على برنامج يمكن تنزيله من الموقع: (IPA). وليس من الغريب أن نجد أن /g/ التي هي كاف مجهورة تحولت إلى الجيم، وبالمقابل تحولت في بعض لهجات العرب الكاف المهموسة إلى جيم مهموسة، وهو صوت ch /ʧ/ وهو منتشر في البلدان الأعجمية المجاورة.

أما فيما يختص بالصوائت أو الحركات فقد تشابهت حركات العربية والسامية الأم. وذلك بثلاثة مصــوتات قصــيرة وهي الفتحة والضــمة والكســرة، وثلاثة طويلة هي الألف والواو والياء. فضــلا عن صــوتين من أنصــاف الصــوائت هما الواو والياء غير المديتين / ؟ ـَ و/ / ؟ ـَ ي/ وتمثلهما في الكتابة الصـــوتية الدولية aw وay. ولكن لا بد لنا من الإشـــارة إلى أن الإمالة الموجودة في العربية منذ أكثر من ألف وخمسمئة عام كانت موجودة في الأكدية قبل أربعة آلاف عام، وقد اســتعملوها بديلًا للفتحتين الطويلة والقصــيرة، أي: الألف والفتحة في بعض اللهجات. فهو تغير لهجي قديم عن الأصل السامي.

الكتابة العربية واللهجات:

إذا نظرنا إلى حروف العربية وطريقة تشـــابهها لأكثر من صـــوت مع اختلاف في نقط الإعجام، كالتشابه بين السين والشين، والصاد والضاد، والدال والذال إلخ، وانتبهنا إلى أن النقط ظهر في وقت متأخر عن ظهور تلك الكتابة التي تبنتها العربية وصارت تكتب بها، لبقي لنا من الحروف الهجائية المعروفة:

ء ب ت ث ج ح خ د ذ ر ز س ش ص ض ط ظ ع غ ف ق ك ل م ن هـ ا و ي

الحروف الآتية فقط:

ء ب ح د ر س ص ط ع ف ك ل م هـ و ي

لقد رأى بعض العلماء أن سـبب تكرار رمز الحرف الواحد لأكثر من صـوت في العربية يعود إلى أن العربية أصواتها أكثر عددًا من أصوات اللغة النبطية التي استعيرت كتابتها للعربية. فعدد حروف اللغة النبطية هو ٢٢ حرفًا فقط، في حين اســـتعملت العربية من الصـــوامت ٢٨ صوتًا.

1	𐡀	𐡁	𐡂	𐡃	𐡄	𐡅	𐡆	𐡇	𐡈	𐡉	𐡊	𐡋	𐡌	𐡍	𐡎	𐡏	𐡐	𐡑	𐡒	𐡓	𐡔	𐡕
2	𐢀	𐢁	𐢂	𐢃	𐢄	𐢅	𐢆	𐢇	𐢈	𐢉	𐢊	𐢋	𐢌	𐢍	𐢎	𐢏	𐢐	𐢑	𐢒	𐢓	𐢔	𐢕
3	ا	ب	ح	د	ه	و	ز	ح	ط	ى	ك	ل	م	ب		ع	ف	ص	ق	ر	س	ب
4	ܐ	ܒ	ܓ	ܕ	ܗ	ܘ	ܙ	ܚ	ܛ	ܝ	ܟ	ܠ	ܡ	ܢ	ܣ	ܥ	ܦ	ܨ	ܩ	ܪ	ܫ	ܬ
5	ʾ	b	g	d	h	w	z	ḥ	ṭ	y	k	l	m	n	s	ʿ	p/f	ṣ	q	r	š	t

1. Aramaic ; 2. Nabataean ; 3. Arabic ; 4. Syriac ; 5. Transcription

الحروف الأولى في هذا الجدول آرامية، تليها النبطية في السـطر الثاني، وفي الثالث العربية بلا نقط الإعجام، ثم الحروف السريانية، ثم رموزها الكتابية.

نلاحظ في الحروف النبطية أن الباء والتاء والنون لا تتشـابه، في حين تشـابهت رموزها إلى حد كبير في العربية. كما أن رمز الحاء لا يشبه رمز الجيم، وهي عندهم تُلفَظ مثل الصوت الإنجليزي /g/ ولا تشبه الراءُ الزايَ، لكن الفاء والقاف تشابهتا نوعًا ما مع تمييز بينهما بالشكل. فإذا كان الخط العربي مأخوذًا من الخط النبطي كما ذكرت بعض النظريات؛ فإن التكرار الذي ظهر فيه لرمز واحد لأكثر من صوت لم يؤخذ من النبطية؛ لأن أشكال الباء والتاء والنون مختلفة فيها، وكذلك بقية الأصوات المذكورة في الأسطر السابقة. كما أن تكرار الرمز الواحد لأكثر من صوت ليس هو التصرف الصحيح للتمكن من تمييز الصوت وقراءته، فكان الأجدى أن يضعوا رموزهم الخاصة للأصوات الأخرى بدلًا من تكرارها، أو يستعيروها من خطوط لغات أخرى تعرف تلك الأصوات. ولكن هل كانت الكتابة معروفة لدى تلك اللغات ذات الأصوات المشابهة؟ كما أن النبطية نفسها لم تكرر الرموز في حروفها الاثنين والعشرين، في حين كررت العربية الرمز للحاء والجيم، والسين والشين، والراء والزاي، والباء والتاء والنون، وهذه الحروف تقع بضمن الحروف النبطية وليست لأصوات العربية التي لم تعرفها النبطية. ويبدو أن العربية قد استعارت صور بعض حروفها من خطوط أخرى كصورة رمز الصاد من الخط المندائي، والمندائية إحدى فروع الآرامية المعروفة في بلاد الرافدين. واستعيرت التاء المربوطة من حروف الخط الآشوري، وهكذا. وهناك نظريات أخرى ترى أن الخط العربي مأخوذ من الخط الآرامي (ذنون، ٢٠١٢، ص١٦٦)، وأخرى ترى أنه أُخذ من الخط المسند (عفيفي، ١٩٨٠، ص ٦٢-٦٤) الذي عُرف في جنوب الجزيرة العربية.

لكن لماذا حصل في الخط العربي هذا التكرار والمطابقة بين رموز لأصوات مختلفة، وهو تكرار ينافي المنطق مع كل ما يثيره من خلل في فهم النص المكتوب؟ ولماذا اختير تكرار بعض الرموز دون غيرها؟ وهذه هي مشكلة البحث والهدف التوصل الى حلها.

لعل حلًّا لا ينطبق على كل الرموز يمكن أن يعالج هذه المعضلة في فهم واضعي رموز الكتابة العربية القدماء، وهو أن الأصوات التي اختير تكرار أحد الرموز لها تكون متقاربة من ناحية المخرج أو الصفة أي: للتقارب الصوتي، مثل التقارب بين التاء والثاء، والدال والذال، فهي متقاربة نوعًا ما، ولكن ما وجه التقارب مثلًا بين الراء والزاي؟

الأقرب من وجهة نظري أن يكون سبب استعمال الرمز نفسه لأكثر من صوت هو تبادل الصوتين في اللهجات واللغات التي كانت معروفة قديمًا للكلمة الواحدة المستعملة في هذه اللغات واللهجات مع تطابق الدلالة فيها، وتكرار هذا بشكل كبير في عدد كبير جدًّا من الكلمات.

وقد يكون من الأفضل لتأمل هذه الفكرة تقسيم النظر إلى رموز الأصوات إلى قسمين:

- الأول لرموز تكررت لأصوات موجودة في النبطية ولها رمز كتابي لكنها جاءت متشابهة في رموز الأصوات العربية وهي:

ب ت ن، ج ح، ر ز، س ش، ف ق

- الثاني لرموز الأصوات التي ليس لها رمز في الكتابة النبطية من العربية وهي:

ث خ ذ ض ظ غ

ومن أمثلة المجموعة الأولى تبادل بعض هذه الأصـــوات المشـــتركة في رمز واحد في الموقع نفسه من جذر الكلمة بحسب اللهجات أو اللغات التي استعملت في المنطقة التي انتشرت فيها العربية أولًا والساميات المعروفة فيها ما يأتي:

السين والشين

نجد تبادلًا في اللهجات العربية بين السين والشين في شمس وسمس، كما يلفظها جمع من المصريين اليوم. وهذا المثل منحدر من اللغات السامية، ففيها أيضًا قد تتبادل السين والشين من الكلمة نفسها كما في السريانية الشرقية، مثل: عسرو للرقم عشر العربي، وشمشو لشمس.

وهذا الأمر معروف في العربية وفي لهجاتها، فنجد في كتاب القلب والإبدال لابن السكيت ذكرًا له في باب السين والشين:

"قال الأصمعي: يقال: جاحشته وجاحسته وجاحفته إذا زاحمتَه، قال: وبعض العرب يقول للجحاش في القتال: الجَحّاس، وأنشد لرجل من بني فزارة:

إن عاش قاسى لك ما أقاسي ..... من ضربيَ الهامات واحتباسي

والضرب في يوم الوغى الجَحّاسِ

الفراء: يقال: ناقة سِرداح وشِرداح في جسمها وعظمها، قال: وقال بعض العقيلين: أَلحِق الحَسّ بالأَسّ، قال: وسمعتهما بالشين من بعض بني كلاب، والمثل ألحِق الحَسّ بالأَسّ، والأسّ السياسة، وقال ابن دريد: مثل من أمثالهم ألصِقوا الحَسّ بالأَسّ، والحَسّ في هذا الموضع الشر، يقول: فألحقوا الشرَّ بأصول من عاديتم.

قال ابن الأعرابي: الزق الحَسّ بالأَسّ.

والحَسّ: الشر أصله.

أبو زيد: يقال: مضى جَرْس من الليل وجَرْش.

أبو عمرو: يقال: سَئِفت أصابعه وشَئِفت وهو تشقُّق يكون في أصول الأظفار.

قال: ويقال: السَّوذَق والشَّوذَق للسِّوار.

اللحياني: يقال: حَمِس الشر وحَمِش الشر؛ إذا اشتد. وقد احتمش الديكان واحتمسا؛ إذا اقتتلا.

وعطس فسمَّتُّه وشمَّتُّه، ويقال: غَبَس وغَبَش للسواد، وقد غبَس الليل واغتبَس وغبَش واغتبَش، ويقال: خرجنا بغَبَش وغَبَس، أي: بسواد من الليل.

الفراء: يقال: أتيته بسُدفة من الليل وشُدْفة، وسَدفة وشَدفة وهو السَّدَف والشَّدَف، وقد يجمعون بين السين والشين في الشعر" (ابن السكيت، ١٩٠٣، ص١٧). وينظر في ذلك لسان العرب: س.د.ف (ابن منظور، ١٣٠٠هـ).

فمن هذا نستنتج إمكانية اختيار رمز موحد للشين والسين لأسباب لهجية قديمة قد تكون امّحت، وبقيت منها مثل هذه الآثار التي نراها في هذه الألفاظ وغيرها مما ذكره ابن السكيت وآخرون ممن كتبوا في الإبدال، ومن صنّاع المعاجم. ولعل ذلك انحدر من تبادل الصوتين في لغات السامية الأم، فالعبرية تُبدل السين شينًا مطلقًا في الألفاظ أنفسها، وكذلك السريانية كما رأينا. وهكذا نرى أن سبب الرمز الموحد هو هذا التبادل. ولكنه لا ينطبق على رموز الأصوات الأخرى المتشابهة في الأحرف العربية وهي موجودة برموز مختلفة الشكل في النبطية (لاحظ الجدول السابق) مثل الراء والزاي، والفاء والقاف، والباء والتاء والنون، والجيم والحاء. فليس واضحًا تمامًا لماذا تشابهت هذه الرموز في الكتابة العربية؛ إذ لم نطلع على أمثلة للتبادل بينها سواء في اللهجات العربية أم في قريباتها الساميات.

الفاء والقاف

وجدنا إشارات قليلة إلى تبادل الفاء والقاف في لهجات العرب في كتاب القلب والإبدال لابن السكيت حيث قال: "والزحاليف والزحاليق: آثار تزلُّج الصبيان من فوق إلى أسفل، فأهل العالية يقولون: زحلوفة وزحاليف، وبنو تميم ومن يليهم من هوازن يقولون: زحلوقة وزحاليق" (ابن السكيت، ١٩٠٣، ص ٢٨) ولعل من قال: زحاليف، نظر إلى أن يكون أصلها من زحف.

الراء والزاي

قد نجد تبادلًا للأصوات الأخرى يعلل اختيار صورة واحدة لها، ولكن قد يكون الأصل مجرد تشابه في صورة رمزين لصوتين تطور إلى تشابه تام أو تطابق في الصورة عند الكتبة فيما بعد، كما وجدنا في الراء والزاي، إذ يتقاربان في الرسم، ويبدو أن الشكل قد تقارب جدًّا ثم تطابق قبل النقط.

أما الأصوات الموجودة في العربية وليس لها مثيل في النبطية وهي:

ث خ ذ ض ظ غ

فيسهل توجيه سبب استعمال العربية رمزًا مكررًا من رموز الكتابة النبطية لها إلى العامل اللهجي. وذلك للتبادل الشهير والمعروف بينها وبين الأصوات التي تمثلها تلك الرموز في

اللهجات واللغات السـامية المعروفة في المنطقة، أي شـمال الجزيرة العربية وبلاد ما بين النهرين وما جاورها من بلاد شرق البحر الأبيض المتوسط ومن ذلك:

التاء والثاء

التاء والثاء تتبادلان إلى اليوم كما في ثور وتور، وثوم وتوم في لهجات المصـــريين وبعض الشاميين. وهذا موجود أيضًا في بعض الساميات مثل: كلمة ثلاث العربية فإنها بالسريانية تلات وما زال كثير من العراقيين يقولون: تلاثة.

الدال والذال

الدال والذال تتبادلان كما في ذيب وديب عند المصـــريين وبعض أهل الشـــام وشـــمال أفريقيا. ونجد مثل ذلك في العبرية فكلمة دؤبا تعني ذهب، ودل تعني ذل، ودابا تعني ذئب (بهنام، ٢٠١٠، ص١٢). إن النظر إلى مثل هذا التبادل يعطينا إمكانية ملاحظة التقارب الصوتي بين الكلمات دب وذئب ودابة، الذي قد يقود إلى أنها انحدرت من الأصل نفسه وتطورت صوتيًا ودلاليًا، ولكن الدلالة العامة التي تجمعها واحدة.

وقد نقل ابن السـكيت في القلب والإبدال أمثلة هذا التبادل في اللهجات العربية، قال في باب الدال والذال:

"أبو عمرو: يقال: ما ذاق عَذُوفًا وما ذاق عَدُوفًا، أي: ما ذاق شـــيئًا، قال أبوعمرو: أنشدت يزيد بن مزيد: عَدوفًا، فقال: صـحَّفت يا أبا عمرو، فقلت: لم أصـحِّف، لغتكم عَذوفًا ولغة غيركم عَدوفًا.

الفراء: يقال: ادرَعَفَّت الإبل واذْرَعفَّت؛ إذا أسـرعت واسـتقامت، وقد اقدحرَّ واقذَحرَّ، وقد تفرقت شـعارير بقِنْدَحْرة وقِنذَحْرة، وتفرقت شـعارير بقِدّان وقِذّان، والذال في كله أجود، ويقال: قد اقذحَرّ للسباب مثل أحربني [كذا]، وأنشد:

إذا الزمام راعه ذو الزرين .....رأيته وهو كأن هرين

يداركان الهرس مُقذَحِرَّين

قال: وسـمعت خالد بن كلثوم يقول: الذحاذِح والدحادِح: القصـار، والواحدة [ذَحْذاحة و] دَحْداحة" (ابن السكيت، ١٩٠٣، ص ٢٤). ولم يذكرها صاحب اللسان بالذال في ق.د.ح.ر (ابن منظور، ١٣٠٠هـ).

الحاء والخاء والجيم

يبدو أن التبادل قد ظهر بعد أن تكونت للســـامية الأم لهجات، ومن ثَم تحولت هذه اللهجات إلى لغات، ففي العبرية مثلًا تظهر الخاء بديلة للحاء التي كانت موجودة فيها قديمًا أولًا. ويظهر العكس في السريانية الغربية أيضًا، مثل: حمشو بالحاء للرقم خمس.

ونقل ابن السـكيت تبادل الخاء والحاء، وتبادل الحاء والجيم في العربية أيضًـا، وكذلك تبادل الخاء والجيم حيث قال في باب الخاء والجيم:

"قال الأصمعي يقال: خلع وجلع إذا ذهب حياؤه، والجعل [كذا والصحيح الجلع] الكشف، والمرأة الجلعة التي قد كشفت عن رأسها قناعها، وأنشد:

قولا لسحبان أرى بوارا .....جالِعةً عن رأسها الخمارا

قال ودخل أعرابي على أمير فضـربه، فقال: وجدته قد خلع وجلع والله مخزيه ومغير ما به ومسلمه شر مسلم" (ابن السكيت، ١٩٠٣، ص ١٣)

وفي باب الحاء والجيم ينقل لنا ابن السكيت تبادلهما في العربية:

"الأصمعي: يقال: تركت فلانًا يجوس بني فلان ويحوسهم، يقول: يدوسهم ويطلب فيهم. الكسائي: يقال: أحَمَّ الأمر وأجَمَّ إذا حان وقته. ويقال: رجل مُحارف ومُجارِف. ويقال: هم يحلبون عليه ويجلبون عليه في معنى واحد، أي: يعينون عليه، وقال الأصـمعي: ما كان معناه قد حان وقوعه فهو أجمَّ، يقال: قد أجَمَّ ذلك الأمر أي قد حان، وأنشد:

حيّيا ذلك الغزال الأحَمّا .....إن يكن ذاكم الفراق أجَمّا

وقال زهير:

وكنت إذا ما جئت يومًا لحاجة .....مضت وأجَمَّت حاجة الغد ما تخلو

وقال عدي بن الغدير الغنوي:

إن قريشًا مُهلَكٌ من أطاعها .....تُنافِسُ دُنيا قد أجَمَّ انصِرامُها

وإذا قلتَ: أحمَّ فهو قدر، ولم يعرف أحَمَّ" (ابن السكيت، ١٩٠٣، ص ٩)

وفي باب الخاء والحاء ذكر لنا ابن السـكيت تبادلهما في المفردات العربية، وما جاء من ذلك في القراءات والأثر:

"قال الأصمعي: الخَشيّ والحَشيّ: اليابس، وأنشد للعجاج:

والهدب الناعب [كذا وفي أمالي القالي: الهدب الناعم والخشـي] (القالي، ١٩٢٦، ١١١/٢) والخَشيّ الناعم اللين الرطب، والخشيّ: اليابس، وأنشد:

وإنَّ عندي إن ركبتُ مِسحَلي سُمَّ ذَراريحَ رِطابٍ وخَشي

أي: لساني أُطلقه. ويقال: خَبج وحَبج إذا ضرط، وقد فاحت منه رائحة طيبة وفاخت. أبو زيد: يقال: خمَص الجرح يخمُص خُموصًـا، وحمَص يحمُص حُموصًـا، وانحمَصَ انحِماصًـا؛ إذا ذهب ورمه. أبو عبيدة: المَخْسول والمَحْسول: المرذول، وقد خسَلْته وحَسَلْته. أبو عمرو الشيباني: الجُحاديّ والجُخاديّ: الضخم. قال: ويقال: طُحْرور وطُخْرور للسحابة، قال الأصمعي: الطَّخارير من السـحاب: قطع مسـتدقّة رِقاق، والواحدة طُخرورة، والرجل طُخرور إذا لم يكن جلدًا ولا كثيفًا،

ولم يعرفه بالحاء. وسمعت الكلابي يقول: ليس على السماء طُحرور وليس على الرجل طُحرور، ولا يتكلم به إلا مع الجحد. والطخارير من السحاب: شيء قليل في نواحي السماء واحدها طُخرور، يُتكلَّم به بجحدٍ وبغير جحد. اللحياني: يقال: شرب حتى اطمحَرَّ وحتى اطمخَرَّ، أي: امتلأ. وقد دَربَح ودَربَخ إذا حنى ظهره. ويقال هو يتحوف مالي ويتخوفه، أي: يتنقصه ويأخذ من أطرافه، قال الله عزّ وجلّ: { أَوۡ يَأۡخُذَهُمۡ عَلَىٰ تَخَوُّفٖ } (النحل ٤٧) أى تنقص، ثم قال الشاعر [وهو ابن مقبل]:

تخَوَّف السيرُ منها تامِكًا قَرِدًا .....كما تخوَّفَ عُودَ النَّبعةِ السَّفَنُ

أي: تنقَّص. ويقال: قرئ: {إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبۡحٗا طَوِيلٗا } (المزمل ٧) و(سبخًا) قرأها يحيى بن يعمر" (ابن السكيت، ١٩٠٣، ص ٩) وجاء في تفسير الطبري : " قال أبو جعفر محمد بن جرير الطبري: «حدثنا ابن حميد، قال: ثنا يحيى بن واضح، قال: ثنا عبد المؤمن، عن غالب الليثي، عن يحيى بن يعمر "من جذيلة قيس" أنه كان يقرأ (سَبْخًا طَوِيلًا) قال: وهو النوم" (الطبري، ٦٨٧/٢٣) قال الفراء: "معناهما واحد، وقال غيره: سبحًا: فراغًا، وسبخًا: نومًا. ويقال: قد سبخ الحر إذا حاد وانكسر، ويقال: اللهم سبّخ عنه الحمى أي خففها، ويقال لما يسقط من ريش الطائر: السبيخ، وقال النبي صلى الله عليه وسلم لعائشة حين دعت على سارق سرقها: «لا تُسبِّخي عنه»، أي: لا تخففي عنه إثمه. ويقال: زاخ عن كذا وكذا وزاح، وأنشدني الكلابي:

فغشيَ الذادةَ من عرامها .....جهل فزاخوا عن رجا مقامها" (ابن السكيت، ١٩٠٣، ص ٩).

وهذا كله يدل على التبادل اللهجي المعروف الذي ظهر حتى في القراءات القرآنية بين الخاء والحاء والجيم، مما يسوّغ استخدام الرمز نفسه لهذه الأصوات. ولعله كان مختلفًا لكل صوت منها مع تشابه أصبح تطابقًا في الصورة بمرور الزمن على أيدي الكتّاب.

العين والغين

يظهر التحول من الغين إلى العين في اللغات السامية مثل الكنعانية، والآرامية ولهجاتها، والعبرية، والمؤابية، والأثيوبية، والجعزية. ولا نحرم أمثلة لهذا التبادل في لهجات العربية التي نقلها ابن السكيت في كتابه حينما قال في باب العين والغين:

"الأصمعي: يقال: غَلَث طعامه وعَلَثه، وقد أغلَث وأعلَث، والعُلاثة سمن وأقِطٌ يخلط أو رُبٌّ وأقِط، ويقال: فلان يأكل الغليث إذا أكل خبزًا من شعير وحنطة، [قال] وسمعت العامري يقول: قال الرجل لامرأته إذا أكل عياله اللحم الغث أو النيء أو السيء يفرق على بطونهم منه: ويلك اغلِثي عن صبيانك بشيء آخر، فنطعمهم طعامًا نضيجًا أو مأدومًا. والغَلْث أن يكون قوم يطلبون عند قوم شيئًا فيقول قائل منهم: اغلِثوا عنكم هذا السماع الذي عليكم بشيء. يقول: وإن أصبتم بريًّا فأثروا فيه بشيء يذكر كما ذكر ما أصابكم، ويقول الرجل: والله لقد عرفنا ما أصبنا

إلا بريًّا ولكنا لم نجد بدًّا من أن نغلِث عنا بشـــيء. ويقال غلث أحد الجملين بالآخر لا يدعه يعالجه ويعضه، وغلث أحد الكلبين بالآخر.

قال الأصـــمعي: وفي لعلّ لغات يقول بعض العرب: لعلّي، ويقول بعضـــهم: لعلَّني، وبعضهم: عَلِّي، وبعضهم: عَلَّني، وبعضهم: لَعنِّي، وبعضهم: لَغَنّي، قال الفرزدق:

هل أنتم عائجون بنا لَغنّا نرى العرصات أو أثر الخيام

قال: وقال عيسى بن عمر: سمعت أبا النجم يقول: اغد لَعنّا في الرهان نرسله، كذا، يريد لعلَّنا، وبعضهم يقول: لأنني ولأني، وبعضهم لو انني، قال: وقال رجل بمنى: من يدعو لي المرأة الضالة؟ فقال أعرابي: لو أن عليها خمارًا أسود، يريد لعل عليها، فقال له: سود الله وجهك.

وأنشد:

فقلت امكثي حتى يسار لو اننا نحج فقالت لي أعام وقابله

يريد لعلنا. الفراء: يقال: سمعت وغاهم ووعاهم وهي الضجة، ويقال: ما لك عن هذا وعل، وما لك عن هذا وغل، في معنى ملجأ. اللحياني: يقال ارمعلَّ دمعه وارمغلَّ، إذا قطر وتتابع. وقد بعثر متاعه وبغثره. أبو عمرو الشيباني: يقال: نشعت به ونشغت به، وإنه لمنشوغ بأكل اللحم، وأنشد لذي الرمة:

إذا مرئية ولدت غلامًا فألأم مرضع نشع المحارا

أبو عبيدة: يقال: غما والله وعما والله، وقد يجمعون بينهما في قافيتين، قال رؤبة:

قبحت من سالفة ومن صدغ

كأنها كشية ضب في صقع" (ابن السكيت، ١٩٠٣، ص ٣٣)

الصاد والضاد

في "اللغات السامية، وجدنا أن الضـاد العربيـة تقابل صـادًا في اللغة الأكدية والأوجاريتية والعبرية؛ فكلمة (أرض) في العربيـة، تقابل كلمة ersetu في الأكدية، وكلمة ars في الأوجاريتية، وكلمة eres في العبرية... ولم تبق ضـــــادًا إلا في العربية الشمالية والعربية الجنوبية (السبئية والمعينية) والحبشـــية، مثل كلمة rd في العربية الجنوبية بمعنى (أرض) كذلك. وكلمة:dahny بمعنى (الشمـس ـ الضحى) في الحبشيـة" (عبد التواب، ١٩٧١، ص٥-٦) ومن أمثلة التبادل بين الصـاد والضـاد ما يظهر في الأكدية بصـورة عامة، ومن أمثلة ذلك: صِـلُّمْ تعني: ضِـلٌّ، ورْصتُمْ تعني: أَرْضٌ(Jeremy Black،2000 ، p. 307) وهذه الميم في نهاية اللفظ هي مقابل التنوين في العربية ويدعى التمييم.

كما نقل لنا ابن السـكيت في باب الصـاد والضـاد تبادلهما عند العرب وظهور ذلك في القراءات:

"الأصـمعي: يقال مصـمص إناءه ومضـمضـه؛ إذا غسـله. أبو عبيدة: يقال عاد إلى ضِئضِئه وإلى صِئصِئه [وإلى صيصئه] أي إلى أصله، والمعروف الهمز [فيه]، ويقال قد صاف السهم يصيف، وضاف يضيف؛ إذا عدل عن الهدف، قال أبو زبيد:

كل يوم ترميه منها برشق .....فمصيب أو صاف غير بعيد

فيقال للشـمس: قد تضـيَّفت؛ إذا مالت للغروب ودنت منه، ومنه اشـتق الضـيف، وقد ضـافني الرجل؛ إذا دنا منك ونزل بك. أبو عمرو يقال: ما ينوص لحاجة، وما يقدر على أن ينوص، أي: يتحرك لشـيء، ومنه قوله تعالى: {وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ} (سـورة ص، ٣) ، [ويقال: ما ينوض لحاجة وما يقدر أن ينوض أيضًـا] قال: وقد انقاص الشـيء وانقاض بمعنى واحد، وقال الأصـمعي: المنقاض المنقعر والمنقاص المنشـق طولًا، وانقاصـت الركية، وانقاصـت السـن إذا انشقت طولًا، وأنشد [لأبي ذؤيب الهذلي]:

فريقًا كقيص السن فالصبر إنه .....لكل أناس عثرة وجبور

القيص: الشـق طولًا. اللحياني: يقال: نصـنص لسـانه ونضـنضـه؛ إذا حركه، وقال الأصمعي: حدثنا عيسى بن عمر قال: سألت ذا الرمة عن الحيّة النضناض، قال: فأخرج لسانه فحركه، وقال الراعي:

تبيت الحيّة النضناض منه .....مكان الحب تستمع السرارا

الحب: القرط، وقال حميد بن ثور:

ونصنص في صمِّ الحصى ثفناته .....ورام بسلمى أمره ثم صمما

ويروى: وحصحص في صم الصفى ثفناته. اللحياني: يقال: تصافوا على الماء وتصافوا عليه [كذا ولعله وتضافوا عليه]، ويقال صلاصل الماء وضلاضله وهي بقاياه، ويقال قبضت قبضة وقرئ [في] هذا الحرف {فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ} (سورة طه، ٩٦)، وقبصت قبصة، وزعم غيره أن القبصة أصغر من القبضة وأنها بأطراف الأصابع" (ابن السكيت، ١٩٠٣، ص٢٢).

الطاء والظاء

أما تبادل الطاء والظاء فيذهب الدكتور حسن ظاظا إلى أن الظاء من مستحدثات العربية الفصـحى في بعض ما كان في الأصـل صـادًا، فكلمة الظل بالعربية كانت بالصـاد في البابلية الآشـورية، والبربرية، والحبشـية (ظاظا، ١٩٩٩، ص١٩). ولكنها صـارت طاءً في الآرامية والسريانية، ووردت بالصاد أحيانًا، وبالظاء أحيانًا في النقـوش اليمنية القديمـة (ظاظا، ١٩٩٩، ص١٩). فنلاحظ تبادل الطاء والظاء في السـاميات، وإن كنا لا نتفق معه على أنه من

مستحدثات العربية الفصحى ما دام موجودًا في النقوش اليمنية القديمة (بيستون، ١٩٨٢، ص١٧١).

وقد أجمع الباحثون في مقارنة اللغات على أن القاف والطاء والصاد شائعة في كل اللغات السامية (الحمد، ٢٠٠٥، ص٨٤)، ومن ثَم فهي موجودة في السامية الأم، فاختيار رمز الطاء لتمثيل الظاء ليس غريبًا إذن على الكتابة العربية التي لم يجزم الباحثون وعلماء الآثار بأصل خطها ومرجعه إلى الآن.

لقد أردنا من هذا الاستعراض لتبادل الأصوات التي اتخذ لها الخط العربي رموزًا موحدة إثبات العلاقة بين تكرار الرمز لأكثر من صوت وموضوع اللهجة، أو ما عُرف في اللغات المنحدرة من اللغة السامية الأم من تبادل. فقد أثر ذلك على ما يبدو في اختيار تلك الرموز مكررة لملاحظة التغير الصوتي غير المؤثر على المعنى عند تبادل تلك الأصوات في اللهجات العربية أو في اللغات السامية المعروفة في المنطقة وفي الزمن الذي ظهرت فيه الكتابة العربية أو أصولها التي انحدرت عنها.

رموز الصوائت (الحركات) في الخطوط العربية القديمة

يقف بحثنا أيضًا على أسباب تأخر ظهور رموز المصوتات (الصوائت) أو الحركات الطويلة والقصيرة في الخط العربي، وعدم تخصيص رموز تمثلها في وقت مبكر مرافق لزمن تخصيص رموز للصوامت فيه.

لقد كان من نتائج تحليل المحدثين للأصوات اللغوية أن قسموها إلى قسمين رئيسين، سموا الأول منهما Consonants، والثاني Vowels، ويسمي بعض الدارسين أصوات القسم الأول بالصامتة، وأصوات القسم الثاني بالصائتة (أنيس، ١٩٧٥، ص٢٦)، (أو المصوتة، أو الحركات). وأساس هذا التقسيم عندهم هو الطبيعة الصوتية لكل من القسمين، فالصفة التي تختص بها الأصوات الصائتة (أو المصوتة، أو الحركات) هي كيفية مرور الهواء في الحلق والفم، وخلو مجراه من حوائل وموانع. في حين أن الأصوات الصامتة (أو الساكنة في تسميتها الأخرى) إما أن ينحبس معها الهواء انحباسًا محكمًا، أو يضيق مجراه. وترتب على اختلاف كيفية مرور الهواء في حالتي النطق بالأصوات الصامتة والأصوات الصائتة (أو الحركات) أن المحدثين لاحظوا أن الأصوات الصامتة أقل وضوحًا في السمع من الحركات عمومًا. فالحركات كالفتحة مثلًا، وهي حركة قصيرة تُسمع بوضوح من مسافة أبعد كثيرًا مما تسمع عندها الفاء. ولهذا عُدَّ الأساس الذي بنيت عليه التفرقة بين الأصوات الصامتة والمصوتة (أو الحركات) أساسًا صوتيًّا وهو نسبة وضوح الصوت في السمع (أنيس، ١٩٧٥، ص٢٦-٢٧).

لقد أدرك علماء العربية القدماء الفرق بين الصـوامت والصـوائت أو الحركات في النطق والصـفات، وأدركوا كذلك أن هناك حركات قصـيرة وأخرى طويلة، وعبروا عن الفرق بين القصـر والطول بعبارات دقيقة تدل على العمق والتذوق (بشر، ١٩٩٠، ص١٤٧). قال ابن جني في سر صـــناعة الإعراب: "اعلم أن الحركات أبعاض حروف المد واللين وهي الألف والياء والواو. فكما أن هذه الحروف ثلاثة فكذلك الحركات ثلاث. وهي الفتحة والكســـرة والضـــمة. والفتحة بعض الألف، والكســـرة بعض الياء، والضـــمة بعض الواو. وقد كان متقدمو النحويين يســـمون الفتحة الألف الصـغيرة، والكسـرة الياء الصـغيرة، والضـمة الواو الصـغيرة. وقد كانوا في ذلك على طريق مستقيمة" (ابن جني، ١٩٥٤، ١٩/١).

إن مصادر دراسة نشوء الخط العربي تشير إلى أنه قد يكون بوصفه كتابةً مجزومًا، أي: مـقـطـوعًـا مـن الـكـتـابـة الـعـربـيـة الـجـنـوبـيـة، أي: مـن الـخـط الـمســـــنـد، أو موضـوعًا من قدماء العرب أو الآراميين أو غيرهم، ولا بد أن نشـير هنا إلى أن هناك من يرى أن الخط سـمي بالجزم بسـبب أشـكال حروف الخط المسـند التي تبدو مجموعة من حروف الخط العربي وكأنها مقتطعة منها مثل الكاف ك، أو هو توقيف من الله –سـبحانه وتعالى– منزل على أحد أنبيائه، أو هو متطور عن الخط النبطي، ولا سـيما المتأخر كما تشـير الدراسـات الحديثة للآثار. وهناك أفكار أخرى في هذا الاتجاه كأن تجعل الخط العربي انحدارًا أو تطورًا عن الخط الذي كتبت به السريانية أو الحضرية (ذنون، ٢٠٠١).

إن من مميزات الخط النبطي إســـقاط الألف من بعض الأســـماء مثل: حرث بدلًا من حارث، ويقوم الألف محل الهمزة، مثل: أمت لت أي: عبدة اللات" (الأحمد، ١٩٨١، ص ٢٥). ومن الملاحظ أن الشكل لم يكن مستخدمًا في القلم النبطي، ولم تستعمله العرب في قلم المسند. كما أنها لم تستعن به في قلمها الجديد في العصر السابق للإسلام (صالح، ١٩٩٠، ص٩٣).

هذه الملاحظات وغيرها دونها الباحثون في الكتابات القديمة، وتشـير إلى افتقاد الحركات الطويلة والقصـيرة قديمًا في الكتابات العربية وخطوطها المستعملة لها. وقد شـاع بين الباحثين أن الكتابات (السـامية) تعتمد على الحروف الصـامتة دون الصـائتة، عدا الأكدية التي كتبت بالكتابة المسمارية المقطعية التي تظهر فيها الحركات بنوعيها.

وفيما يخص نقوش العربية الجنوبية القديمة التي كتبت بالخط المســـند يقول غويدي (غويدي، ١٩٣٠، ص٣):

"لا حركة في كتابة النقوش ولا علامة للسكون أو للتشديد فلا تعرف بتدقق الهيئة الحاصلة للكلمات بالأشكال والراجح أنها كانت تطابق هيئة سائر اللغات السامية ولا سيما هيئة العربي. ويعبر عن اتحاد الفتحة والواو، أي aw بحرف 𐤏 نحو: 𐤉𐤅𐤌 yawm اليوم، وكذلك عن اتحاد الفتحة والياء بحرف 𐤉 نحو 𐤁𐤉𐤕 bayt البيت، وربما يكون 𐤉 علامة لإشباع الكسرة وهو نادر، نحو: 𐤎𐤉𐤍 sin سين اسم أكبر آلهتهم. وقد تسقط الواو أو الياء في الكتابة نحو: 𐤁𐤕 وصوابه 𐤁𐤉𐤕. وأما 𐤏 في آخر جمع الأفعال وفي آخر المضمرات فلا تسقط نحو: 𐤎𐤕𐤓𐤅 sataru سطروا 𐤄𐤅𐤌𐤏 humu وقد تقوم 𐤄 مقام الفتحة أو الكسرة نحو: 𐤁𐤍 وصوابه: 𐤁𐤍𐤍 bin,ban ابن. وهذا في النقوش المعينية دون غيرها فإنها أقل ضبطًا من السبئية نحو: 𐩱𐩣𐩲𐩨 ملك معين".

إن ما ظهر في الكتابة العربية الجنوبية من عدم استعمال حروف لأصوات العلة أو الحركات الطويلة، وعدم استعمال الحركات القصيرة كذلك هو خصيصة من الخصائص التي تشترك بها اللغات (السامية) بوجه عام، فإنها تعتمد في الكتابة على الحروف الصامتة دون الحروف الصائتة (الضامن، ١٩٩٠، ص٢٥)، كما ذكرنا. وهو مألوف في (الساميات) الأخرى بالتأكيد عدا التي استعملت الكتابة المسمارية التي اتخذت أسلوبًا مقطعيًّا في الكتابة، فظهرت الحركات فيها بنوعيها الطويل والقصير، كما في الأكدية. والمسمارية لم تكن كتابة موضوعة لهذه اللغة، وإنما للغة غير سامية هي السومرية.

وما يهمنا هنا هو سبب عدم ظهور الحركات الطويلة والقصيرة (الصوائت) بوضوح في الكتابات العربية والخطوط التي استعملتها العربية، مع أنها –أي: اللغة العربية– تعتمد اعتمادًا واضحًا في التفريق بين المعاني الدقيقة المرادة من الكلمات على استعمال الحركات الطويلة والقصيرة. وهذا مما يستوقف المتأمل ولا سيما في كتابة لغة مُعْرَبة، كالعربية. والإعراب لا يكون كما هو معروف بالحركات الأصلية القصيرة دائمًا، وإنما يكون بالحركات الطويلة النائبة في مجموعة من المواضع فيها. فضلًا عن اختلاف بيِّن في التثنية والجمع قد لا يسعف الجذر وحده في الإشارة إلى المراد منه عند كتابته.

إن هذا يستوجب منا نظرًا في أول الوضع؛ إذ تطورت الكتابة والخطوط العربية إلى أن توصلت إلى النقط بنوعيه: (نقط الإعراب، ونقط الإعجام)، فضلًا عن ظهور أوضح للحركات الطويلة. إنما الحديث عن سبب اختفاء الحركات عند وضع رموز الخط في أول الأمر.

مهما كان الأصل الذي انحدر منه الخط العربي، فإنه اتبع بالتأكيد الخطى نفسها التي خطاها مبتكر الكتابة الأول. وهي خطوة رسم ما يريد التعبير عنه لتوثيقه أولًا. ومن ثَمَّ ترميز

الصـورة –أي : رسـم صـورة خطوطها أقل من الصـورة الأصـل الدقيقة، ومن ثم –وهذا هو بيت القصـيد– ينتقل الكاتب إلى طور يدعى بالطور الهجائي، إذ يصـبح الرمز دالًّا على صـوت لا على كلمة. والأبرز أن ينتقي صـاحب الكتابة رمزًا يمثل صـورة شـيء يبدأ اسـمه بالصـوت الذي يريد أن يرمز له. كأن يكون رمز صـــوت العين في الخط المســند دائرة (ع) (غويدي، ١٩٣٠، ص٢)، وقد أتي به من صـورة العين، ويقال عنها: عين في العربية الجنوبية أيضًـا، (بل إن هذا من الألفاظ التي اســتقرت في الســاميات معظمها)، وواضــح أنه في هذه الكتابة أو هذا الخط متطور عن صـورة العين التي رُمِّزت بالدائرة، بعدها صـارت الدائرة تدل على الصـوت الأول من عين، لا على الكلمة كاملة.

إن هذا الأســلوب متبع في تطور الكتابة من الصــورية إلى الهجائية. ومن ثم قد تتطور أشـكال هذه الرموز أو تسـتقر، وقد تبتعد أشـكالها عن الصـورة التي كانت تمثلها. وهذه المسـألة معروفة عند متتبعي تطور الكتابات من علماء اللغات القديمة.

وهكذا تنشأ رموز الصوامت. والمعتاد أن يبدأ الإنسان كلماته بصامت، والصوامت تشكل قواعد المقطع الصـوتي، في حين تشـكل المصـوتات أو الحركات بنوعيها الطويل والقصـير قمم المقطع الصـوتي. فالرمز الذي نجد صـوته في أول الكلمة المصـورة لا بد أن يكون صـامتًا؛ لأن الإنسـان يبدأ كلماته أو كلامه باسـتعمال صـامت، والموجة الصـوتية التي تحمل صـوته تبدأ من القعر بصامت.

أما الصـائت أو المصـوت فلا يُبتدأ به، ولا بد له أن يكون بعد صـامت، فلا يبدأ المقطع الصـوتي بقمة الموجة، إنما يبدأ الإنسـان كلامه بصـامت يكون في قعر الموجة الصـوتية، ويمكن أن يتبعه بمصــوت أو صــائت. ولذلك إذا كان مخترع هذه الكتابة قد اعتمد فكرة أخذ الصــوت الأول من اسم كل شـيء رسم صـورته ليمثل وحده مقابل الصـورة (الرمز) من أصـوات اسمها، –أقول– لذلك لم تظهر الحركات بنوعيها الطويل والقصــير بين رموز الكتابة الأولى؛ إذ لا توجد كلمة تبدأ بصائت أو مصوت ليتخدها رمزًا من خلال صورتها لذلك المصوت أو الحركة (الطويلة أو القصيرة) كالألف والواو والياء المديتين، والفتحة والضمة والكسرة.

أما نصـف المصـوت أو نصـف الصـائت فقد ظهر في الكتابات العربية الأولى كالواو والياء المســبوقتين بفتحة في: يوم، وبيت؛ وذلك لأن مثل هذه الأصــوات تحتل قاعدة المقطع، ويمكن للمتكلم أن يبدأ كلمته وكلامه بهما، فهناك كلمات يمكن أن تبدأ بهما. وتتطور صــورها لتكون رموزًا لهما فيما بعد. وإذا ابتدأ بهما تلحقان بفتحة، فالواو والياء تشــكلان قاعدة المقطع، والفتحة قمته.

الراجح أن واضـــع الرموز قد اعتمد الطريقة نفســـها في اختيار رمز الواو والياء غير المدِّيَّتين، أو ما يدخل في المزدوج الذي هو انتقال بين حركتين في تعريفه العام، فقد لجأ إلى اختيار كلمة تبدأ بهما وصـــورها، وتطورت صـــورتها إلى أن تحولت إلى رمز هجائي. فالواو في العربية الجنوبية مثلاً رمزها /و/ (غويدي، ١٩٣٠، ص٢)، ويفترض أنه رمز أصـــله كلمة، والغالب أن تكون هذه الكلمة هي واو العطف؛ لأنها أبرز اســتعمال للواو في العربية، والصــوت الرئيس فيها هو الواو، والذي يليه هو الفتحة. والواو إن أردنا رسمها أو الإشارة إلى معناها بصورة فلا بد من تذكر أن العطف دال على الاشتراك واقتسام شيء ما، فإذا ما لاحظنا الرمز /و/ وجدنا في قســمة الدائرة من وســطها دليلًا على هذا المعنى. وقد تكون الاســتدارة إشــارة إلى اســتدارة الشفتين عند لفظها أيضًا.

لقد لاحظ واضــع الكتابة العربية الجنوبية وكذلك فعل صــاحب الشــمالية ظهور هذه الواو في أكثر من موضــع آخر في الوسط، وفي النهايات من الكلمات، فاستعملها لتلك الأمكنة بغض النظر عن حركتها اللاحقة أو الســابقة. وكذلك فعل بالياء/ي/ ونلاحظ صــورتها مثل اليد، وهي أول كلمة يَد، فاستعملها للنوعين المدي ونصف المدي على الأسس السابقة نفسها.

لعل أبرز الصــوائت الســاقطة من الكتابات العربية القديمة هو صــوت الألف، ولو تأملنا نقش النمارة (٣٢٨م) (صــالح، ١٩٩٠، ص ٢٦٦و ١٨) العائد إلى سنة ثمان وعشرين وثلاثمئة ميلادية وهو شــاهد قبر امرئ القيس بن عمرو ملك العرب لوجدنا أنه لا يشــتمل على الألف بين حروفه، ويشــتمل على الهمزات في مواضــعها التي تلفظ بها من الكلمات مفردة غير موصــولة، مثل: ملك ألعرب، ومثل: ج ء، فقد ظهرت الهمزة قبل اللام في: العرب على الرغم من أنها توصل ولا تلفظ، ووضــعت الجيم مع الهمزة وحدها للدلالة على: جاء. مما يدل على أنه كان من قاعدة الكتابة عندهم أن تكتب الكلمات كما تتهجى مفردة لا في الدرج.

نعود إلى الألف التي من عادة المتكلم إذا أراد الإتيان بها مفردة أن يبدأ بهمزة ثم يلحقها بها، وقد درج القدماء على إرفاقها باللام تســبقها وهو من أبرز اســتعمالاتها، أي: عند النفي بلا. وذلك لعدم تمكن الإتيان بها في أول المقطع؛ لأنها قمة مقطع، والقمة لا تأتي إلا وقبلها قاعدة في الكلام الإنســاني. من هنا لم يجد واضــع الكتابة الذي اتخذ القاعدة في إيجاد الرمز أن يكون في مقدمة الكلمة المصــورة، وكذا لم يجد كلمة تبدأ بالفتح ولا بالضــم، ولا بالكســر، فتخلى عن اتخاذ رموز لهن، واعتمد الصــوامت فقط رموزًا لكتابته لأنهن لا تمثلهن كلمات بأعينها ليرســم صــورتها للدلالة عليها. فهذه الحركات (القصــيرة أو الطويلة) هي جزء من تركيب الكلمات جميعها، يظهر بعضها هنا وبعضها الآخر هناك باستمرار بين صوامت الكلمات.

لذا كانت سـليقة المتكلم هي المعتمدة في قراءته لنصـوص الكتابة القديمة؛ لأنه عندما يتمكن من خط العربية لن يخطئ في الصـوائت من خلال إعانة السـياق، لا بناء الكلمة؛ لأنه متعارف عليه في زمانهم، ولا إعرابها؛ لأنه جزء من سـليقتهم، وتتركز المعاني في أذهانهم مع أدلتها الصـوتية من الصـوائت أو الحركات الطويلة والقصـيرة، بل إن الاعتياد والسـليقة وحسـن الاستنتاج المعزز بالمعلومات الشائعة في زمنهم أدت بهم إلى ألا يكونوا في حاجة كبرى إلى نقط الإعجام.

ونقول كما قال الباحثون من قبلنا: إن اختلاط العرب بغيرهم هو الذي أدى إلى نقط الإعراب ونقط الإعجام. وإلى توضـيح أكبر في الكتابة بعد الإسـلام؛ لخطورة المادة المنقولة بالكتابة وهي تتعلق بقوانين وتشريعات إلهية وعلوم تدور حولها، فاهتدى العرب إلى زيادة دقة في كتابتهم بنقط حروفهم نقط إعجام، وبشكلها الذي أخذ أشكالًا عدة حتى استقر لأهميته القصوى في إبانة المعاني بعد أن صارت العلوم والنصوص تكتب لتنقل إلى الأجيال والأقوام على تباعد الشقة والأزمنة.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم

.IPA help .*http://www.sil.org/computing/ipahelp/ipaconsi2.htm* .IPA

." Proto-Semitic Phonology and Phonetics" .(2011) .Leonid Kogan

Wiesbaden.2nd printing .*A Concise Dictionary of Akkadian* .(2000) Jeremy Black

٤- أنيس ، إبراهيم. (١٩٧٥م). *الأصوات اللغوية*. ط٥، مكتبة الأنجلو المصرية مصر.

٥- ابو الفتح ، عثمان بن جني. (١٩٥٤). *سر صناعة الإعراب* تحقيق: مصطفى السقا وصحبه، ط١ نشر: مصطفى البابي الحلبي، مصر.

٦- ابو علي اسماعيل بن القاسم القالي. (١٩٢٦). *الأمالي*. دار الكتب المصرية ، مصر.

٧- ابو يوسف يعقوب بن اسحاق بن السكيت ، (١٩٠٣). *القلب والإبدال* . طبع كجزء من كتاب الكنز نشره وتعليق حواشيه الدكتور أوغست هفنر – طبع بالمطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين، بيروت.

٨- عمر ، أحمد مختار. (١٩٧٦). *دراسة الصوت اللغوي* . عالم الكتب – مطابع سجل العرب، القاهرة.

٩- غويدي ، أغناطيوس. (١٩٣٠). *المختصر في علم اللغة العربية الجنوبية القديمة*. نشر: الجامعة المصرية، مصر.

١٠- أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن. توزيع دار التربية والتراث مكة المكرمة، مصورة عن تحقيق شاكر والحلبي. د.ت.

١١- بهنام ، بولس. (٢٠١٠). *العلاقات الفنية في نشوء الأبجدية بين اللغتين العربية والآرامية*. المديرية العامة للغة السريانية في إقليم كردستان، إقليم كردستان العراق.

١٢- بيستون ورفاقه. (١٩٨٢). *المعجم السبئي*. مطبوعات جامعة صنعاء، مكتبة لبنان، بيروت:.

١٣- ابن منظور ، جمال الدين محمد بن مكرم الأنصاري. (١٣٠٠ هـ). *لسان العرب* . طبعة بولاق مصر.

١٤- الضامن ، حاتم صالح. (١٩٩٠). *فقه اللغة*. طبع دار الحكمة الموصل.

١٥- ظاظا ، حسن. (١٩٩٩). *الساميون ولغاتهم*. ط٢ دار القلم، دمشق .

١٦- عبدالتواب ، رمضان. (١٩٧١). مشكلة الضاد العربية وتراث الضاد والظاء. *مجلة المجمع العلمي العراقي* مجلد ٢١ . بغداد.

١٧- الأحمد، سامي سعيد. (١٩٨١). *المدخل إلى تاريخ اللغات الجزرية*. نشر: اتحاد المؤرخين العرب بغداد.

١٨- عبد العزيز، حميد صالح. (١٩٩٠). *الخط العربي*. مطابع التعليم العالي الموصل.

١٩- ابن حزم ، علي بن أحمد الأندلسي. (١٩٨٣). *الإحكام في أصول الأحكام*. دار الآفاق الجديدة مصر.

٢٠- عفيفي ، فوزي. (١٩٨٠). نشأة وتطور الكتابة الخطية العربية ودورها الثقافي والاجتماعي. وكالة المطبوعات الكويت.

٢١- بروكلمان ، كارل. (١٩٧٧). *فقه اللغات السامية*. (ترجمة رمضان عبد التواب) طبع جامعة الرياض، الرياض.

٢٢- بشر، كمال. (١٩٩٠). *علم اللغة العام – الأصوات*. مكتبة الشباب القاهرة.

٢٣- الحمد، محمد إبراهيم. (٢٠٠٥). *فقه اللغة: مفهومه، موضوعاته، قضاياه*. دار ابن خزيمة الرياض.

٢٤- حجازي، محمود فهمي. (٢٠٠٣). *أسس علم اللغة*. دار الثقافة القاهرة.

٢٥- ذنون، يوسف. (٢٠٠١). الكتابة الحضرية وأثرها في نشوء الكتابة العربية. مطبوع *في* مجموعة *بحوث*

المؤتمر الدولي لمرور ٥٠٠٠ عام على اختراع الكتابة بغداد.

٢٦- ذنون، يوسف. (٢٠١٢). الكتابة وفن الخط العربي النشأة والتطور. دار النوادر سورية .

The Holy Quran

IPA. http://www.sil.org/computing/ipahelp/ipaconsi2.htm. IPA help.

Leonid Kogan. (2011). "Proto-Semitic Phonology and Phonetics."

Jeremy Black (2000). A Concise Dictionary of Akkadian. 2nd printing. Wiesbaden

Anis، Ibrahim. (1975 AD). Linguistic sounds. 5th edition، Anglo-Egyptian Library، Egypt.

Abu Al-Fath، Othman bin Jinni. (1954). The Secret of the Syntax Industry، edited by: Mustafa al-Saqqa and his companions، 1st edition، published by: Mustafa al-Babi al-Halabi، Egypt.

Abu Ali Ismail bin Al-Qasim Al-Qali. (1926). Al-Amali. Egyptian Book House، Egypt.

Abu Yusuf Yaqoub bin Ishaq bin Al-Sakit، (1903). Heart and replacement. Printed as part of the Treasure Book، published and annotated by Dr. August Hefner - printed by the Catholic Press of the Jesuit Fathers، Beirut.

Omar، Ahmed Mukhtar. (1976). Study of linguistic sound. World of Books - Arab Record Press، Cairo.

Guidi، Ignatius. (1930). A summary of ancient South Arabic linguistics. Published: Egyptian University، Egypt.

Abu Jaafar Muhammad bin Jarir al-Tabari، Jami' al-Bayan on the interpretation of the verses of the Qur'an. Distributed by the House of Education and Heritage، Mecca، illustrated by Shaker and Al-Halabi. D.T.

Behnam، Boulos. (2010). Technical relations in the emergence of the alphabet between the Arabic and Aramaic languages. General Directorate of the Syriac Language in the Kurdistan Region، Kurdistan Region of Iraq.

Piston and his companions. (1982). Sabaean dictionary. Sana'a University Publications، Lebanon Library، Beirut.:

Ibn Manzur، Jamal al-Din Muhammad bin Makram al-Ansari. (1300 AH). Arabes Tong . Bulaq Egypt edition.

Al-Damen، Hatem Saleh. (1990). Philology. Printed by Dar Al-Hekma Mosul.

Zaza، Hassan. (1999). The Semites and their languages. 2nd edition، Dar Al-Qalam، Damascus.

Abdel Tawab، Ramadan. (1971). The problem of the Arabic dhaad and the heritage of dhaad and dhaa. Journal of the Iraqi Scientific Academy، Volume 21. Baghdad.

Al-Ahmad، Sami Saeed. (1981). Introduction to the history of island languages. Published by: Union of Arab Historians، Baghdad.

Abdel Aziz، Hamid Saleh. (1990). Calligraphy. Mosul Higher Education Press.

Ibn Hazm، Ali bin Ahmed Al-Andalusi. (1983). Precision in the principles of rulings. New Horizons House، Egypt.

Afifi، Fawzi. (1980). The origins and development of Arabic calligraphy and its cultural and social role. Kuwait Publications Agency.

Brockelmann، Karl. (1977). Semitic linguistics. (Translated by Ramadan Abdel Tawab) Riyadh University Press، Riyadh.

Bishr، Kamal. (1990). General linguistics - sounds. Youth Library، Cairo.

Al-Hamd، Muhammad Ibrahim. (2005). Philology: its concept، topics، and issues. Dar Ibn Khuzaymah، Riyadh.

Hegazy، Mahmoud Fahmy. (2003). Foundations of linguistics. Cairo House of Culture.

Thanoun، Youssef. (2001). Urban writing and its impact on the emergence of Arabic writing. Printed in the research collection of the International Conference on the 5000th Anniversary of the Invention of Writing، Baghdad.

Thanoun، Youssef. (2012). Writing and the art of Arabic calligraphy، origins and development. Dar Al-Nawader Syria